

الحلقة الثالثة  
قصص الخلفاء الراشدين

القصص النبوية

# فتح دمشق

عبد الحميد جودة السحار

٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِنْ تَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ »

(قرآن کریم)

عزم أبو بكر الصديق على فتح الشام ، فأرسل أربعة جيوش إليها ، وسارت هذه الجيوش وقاتلت الروم ، فلقيت منهم مقاومة شديدة ، فرأى أبو بكر أن يعزز هذه الجيوش ببعض أبطال المسلمين ، الذين يحاربون الفرس في العراق ، فكتب إلى خالد بن الوليد ، سيف الله المسلول ، أن يسير من العراق إلى الشام . واجتمعت جيوش المسلمين تحت إمرة خالد ، واجتمعت جيوش الروم تحت إمرة ملكهم هرقل . وجاءت الأنباء بموت أبي بكر وتولية عمر الخلافة ، وقد التقى الجيشان عند نهر اليرموك ، وقد دارت رحي معركة فاصلة ، بين الروم والمسلمين . وجاءت الأنباء بعزل خالد وتولية أبي عبيدة بن الجراح ، قائدا عاما على جميع جيوش المسلمين ، فكتب خالد هذا النبا ، حتى تمت له هزيمة الروم ، ثم أعلن النبا ، وأعلن قبوله أن يعمل كأحد الجند في

جيش أبي عبيدة ، فقد كان خالد يحاربُ في سبيل  
الله ، سواءً عنده أكان قائدا أم جندياً .

وسار أبو عبيدة بالجيش ، وقد جعل وجهته  
دمشق ، عاصمة الشام ، فجاءته الأخبار بأن المدد  
قد أتى أهل دمشق من حمص ، فأصبح لا يذرى  
أيداً بغزو دمشق أم بمدينة فحل من بلاد الأردن ،  
فكتب في ذلك إلى عمر بن الخطاب ، فلما جاء  
عمر الكتاب ، كتب إلى أبي عبيدة : « أما بعد ،  
فابدءوا بدمشق ، فإنها حصن الشام ، وبيت  
مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون  
يأزائهم في نحورهم » .

فسرح أبو عبيدة إلى فحل عشرة قواد ، فلما  
رأت الروم أن الجنود تريدُهم ، بثقوا المياه حول  
فحل : أطلقوا ماء بحيرة طبرية ونهر الأردن في  
الأرض حولهم ، فأردغت الأرض ، ثم توحلت ،

وتعذر السير فيها ، فوقفوا بإزاء الروم وحاصروهم .

وأرسل أبو عبيدة جيشاً آخر ، ليقف بين دمشق وحمص ، حتى يتعذر على هرقل ملك الروم ، الذي كان في حمص ، أن يرسل المدد إلى دمشق ، إذا ما هاجمها أبو عبيدة بجيشه .

وسار أبو عبيدة إلى دمشق ، وقد جعل على مقدمته خالد بن الوليد ، وعلى مجبتيه عمرو بن العاص وأبا عبيدة ، وانطلقوا قاصدين دمشق .

سار خالد حتى أشرف على موضع يقال له الثنية ، فوقف هناك ، وركّز راية العقاب ، فسميت : « ثنية العقاب » ، ثم ارتحل منها إلى دير ، وأقام على الدير ينتظر قدوم أبي عبيدة ، فسُمّي ذلك الدير فيما بعد « دير خالد » .

وبلغ هرقل قدوم خالد على دمشق ، فغضب ، وجمع رجاله ، وقال :

هؤلاء العربُ قد توجَّهوا إلى الرِّبوة ففتحوها ،  
فواكرباه ! لأنَّ دمشقَ جنةُ الشام ، وقد سارت  
إليها الجيوش : أيكم يتوجَّه إلى قتال العرب ،  
ويكفيني أمرهم ، أعطيته ما فتحوه ملكاً ؟  
فقال أحدُ فرسانهم الشجعان .

- أنا أكفيك ، وأردُّهم على أعقابهم مُنهزمين .  
وجهِزه الملك ، وخرج علي رأس خمسة آلاف  
فارس ليُرَدَّ العربُ عن دِمَشقَ جنةِ الشام . وزحف  
جيشُ الرُّومِ على جيشِ خالدٍ كالجرادِ المنتشر . فلما  
نظر خالدٌ ذلك ، تدرَّعَ بدرعِهِ ، ثم صرخ في وجهِ  
المسلمين ، وقال :

- هذا يومٌ ما بعده يوم ، وهذا العدوُّ قد زحف  
بخيله ، فدونكم والجهاد ، فانصُروا اللهَ ينصركم ،  
وكونوا ثمنَ باعٍ نفسه لله عزَّ وجلَّ .

هجم المسلمون على الرُّوم ، ودار القتال ،  
وتطايرت السَّهام ، ورأى الرُّومُ من العربِ شجاعةً

أَفْرَعْتَهُمْ ، فانسحبوا إلى دِمَشْق ، وأغلقوا أبوابها ،  
وراحوا يجمعون جموعهم ، ليستأنفوا القتال بعد أن  
يُضْمَدُوا جروحهم ، ويُسَوَّوْا صفوفهم .

وأقبل أبو عبيدة في جيشه ، فأسرع خالد إليه  
يخبره بما كان بينه وبين الروم ، وأقبل المسلمون  
يُسَلِّم بعضهم على بعض ، فلما كان الغد ، ركب  
الناسُ خيولهم وتزَيَّنَتِ المراكب ، وزحف أهل  
دِمَشْقَ للقتال ، فقال خالد لأبي عبيدة :

— إِنَّ الرُّومَ قَدْ انْخَذَلُوا ، وَوَقَعَ الرُّعْبُ فِي  
قُلُوبِهِمْ ، فَاجْعَلْ بِنَا عَلَى الْقَوْمِ .  
فقال أبو عبيدة :

— هَذَا هُوَ الرَّأْيُ السَّدِيدُ .

ونزل خالدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى الْبَابِ الشَّرْقِيِّ ، وَنَزَلَ  
أَبُو عُبَيْدَةَ عَلَى بَابِ الْجَايَةِ الْكَبِيرِ ، وَنَزَلَ عَمْرُو بْنُ  
الْعَاصِ وَالْقَوَاذُ الْآخَرُونَ عَلَى بَقِيَّةِ أَبْوَابِ الْبَلَدِ ،  
وَنَصَبُوا الْمِجَانِيْقَ وَالذَّبَابَاتِ . وَاسْتَمَرَ الْحِصَارُ ،

وراحت الشُّهور تمرَّ والرُّومُ في حصون المدينة  
يقاومون ، ويُرسِلون إلى ملكهم هرقل ، الذى كان  
بِحمص ، يطلبون المُدَدَ ، فأرسل إليهم خيولا  
لُغِيثهم ، ولكنَّ جيشَ المسلمين ، الذى وقف بين  
حصن وِدْمَشقَ ، هزم المدد ، فوقع أهلُ دِمَشقَ في  
خَيْرَةٍ شديدة .

## ٢

اشتدَّ الحِصارُ ، ولكنَّ لم يدبَّ الضعفُ فى الرُّومِ  
المتحصنين فى الحصون ، كانوا ينتظرون الشتاء ،  
وكانوا يأملون أن ينفضَّ العربُ أبناءَ الصَّحراءِ عن  
حصارهم إذا اشتدَّ البردُ ، فقد كانوا يعتقدون أنهم  
لا يستطيعون احتماله . وجاء الشتاءُ ببرده الشديد ،  
وظلَّ المسلمون على حصارِ دِمَشقَ . وانقضى



الشتاء ، وأقبل الربيع ، فضعف الروم ، وتيقنوا أن المسلمين لن يرجعوا عن دِمَشقَ حتى يفتحوها ، ويستولوا عليها . وأراد قائدُهم أن ينفخَ فيهم الحماسة ، فوقف بينهم وقال لهم :

- إنه قد طاف عليكم قومٌ لا أمانَ لهم ، وقد أتوا يسكنون بلادكم ، فكيف صبرتم على ذلك ، وعلى هتكِ الحريم ، وسبي الأولاد ، وتكون نساؤكم جوارى لهم ، وأولادكم عبيداً لهم ؟  
فقالوا له :

- ها نحن بين يديك ، وقد رضينا بما رضيت لنفسيك ، فإن أمرتنا بالخروج خرجنا معك ، وإن أمرتنا بالقتال قاتلنا .

- إني قد عزمْتُ على أن أهجمَ عليهم الليلة ، فإن الليلَ مهيبٌ ، وأنتم أخبرُ البلدِ من غيركم .  
- حباً وكرامة .

وراح القائدُ يفرِّقُ جنودَه ، ففرَّقَ القومَ على  
الباب الشرقيِّ فرقةً ، وعلى باب الجابيةِ فرقةً ،  
وعلى كل بابٍ جماعةً .

وفي سكون الليلِ فُتِحَتِ الأبوابُ ، وتسَلَّلَ الرُّومُ  
ليقتلوا العربَ وهم نائمون ، ولكنَّ المسلمينَ كانوا  
في يقظةٍ ، فلما رَأَوْا قدومَ الرُّومِ ، أيقظَ بعضهم  
بعضاً ، وتواثبَ الرجالُ من أماكنهم كالأسودِ ،  
فتقاتلَ القومُ في جُحِ الظلامِ ، وأسرعَ خالدٌ إلى  
جنوده وهو يصيحُ :

— أبشروا يا معاشِرَ المسلمينَ ، أتاكم الغوثُ من  
ربِّ العالمينَ ، أنا الفارسُ الصُّنْدِيدُ ، أنا خالدُ بنُ  
الوليدِ .

وعلا الرُّومُ الأسوارَ ، وراحوا يَرْمُونَ المسلمينَ  
بالنِّبالِ ، واستمرَّ القتالُ في الليلِ ، وكانت ليلةٌ  
مقمرةٌ ، فقتَلَ من الرُّومِ خلقٌ كثيرٌ ، ولم يستطيعوا

صبرا ، فانسحبوا إلى المدينة ، وأغلقوا أبوابها خلفهم .

واجتمع كبار أهل دِمَشقَ إلى قائدهم ، وقالوا له :  
 — أيها السيد ، إنا قد نصحناك ، فلم تسمع  
 لقولنا ، وقد قُتِلَ منا أكثر الناس ، فصالح ، أصلح  
 لك ولنا ، وإن لم تصالح صالحنا ، وأنت وشأنك .  
 فقال لهم :

— يا قوم أمهلوني حتى أكتب إلى الملك .

### ٣

اشتد الأمر على أهل دِمَشقَ ، فأرسلوا إلى خالد  
 أن أمهلنا ، فأبى خالد إلا القتال ، وتحدث أهل  
 دِمَشقَ في أمر الصلح فقالوا لرجل من حكمائهم :

- كيف الرأى عندك ، فنحن نعلم أن هذا الأمير  
الذى على الباب الشرقى ( خالد بن الوليد ) رجل  
سفاك للدماء ؟

فقال الرجل :

- إذا أردتم تقارب الأمر ، فامضوا إلى الذى  
على باب الجابية ( أبى عبيدة ) ، ولتكنم رجل  
يعرف العربية ويقول :

« يا معشر العرب ، الأمان حتى ننزل إليكم ،  
ونتكنم مع صاحبكم » .

وصعد رجل من الروم يعرف العربية ، على سور  
المدينة ، وصاح يطلب الأمان ، فأرسل إليه أبو عبيدة  
أبا هريرة صاحب رسول الله ، فقال :

- لكم الأمان .

- أنا أبو هريرة ، صاحب رسول الله ﷺ ، ولو  
أن غيذا لنا أعطوكم الأمان والدمام ، ونحن فى

الجاهلية لما غدرنا ، فكيف وقد هدانا الله إلى دين  
الإسلام !

وذهب وفدٌ من الروم إلى أبي عبيدة ، ليتكلموا  
في أمر الصلح .

#### ٤

وولد لبطريق دمشق مولودٌ في هذه الليلة ، فأعدَّ  
وليمةً فاخرة ، دعا إليها الجنود ، فأكلوا وشربوا  
وتعبوا ، فناموا عن مواقعهم ، وكان خالد بن الوليد  
يرقبُ حركاتهم ، ينتظرُ فرصةً يغفلون فيها ، ليهجمَ  
عليهم ، ويفتحَ مدينتهم ، التي دام حصارُها أربعة  
أشهر ، فلما لم يجدَ جنودَ الروم على أسوار المدينة ،  
أرسلَ بعضَ عيونه ، ليروا ما الخبر ؟ فعادوا إليه ،  
وأخبروه أنَّ الجنودَ مشغولون بوليمة البطريق .

وأعدَّ خالدٌ سلايِمَ من حبال ، ودعا بعض أبطال  
المسلمين ، وقال لهم :

- اتبعونى .

وقال لجيشه .

— إذا سمعتم تكبيرنا فوق السُّور ، فارقوا  
(فاصعدوا) إلينا .

وكان حول الحصن خندقٌ به ماء ، فقطع خالدٌ  
وأبطالُ المسلمين الخندقَ سباحةً ، حتَّى إذا بلغوا  
الحصنَ نصبوا السَّلام ، وقد أثبتوا أعاليها  
بالشُرُفات ، وصعدوا فيها ، حتَّى إذا استَوَوْا على  
السُّور ، رفعوا أصواتهم :

- الله أكبر ..... الله أكبر .

وسمع جيشُ خالدٍ التكبير ، فأسرعَ المسلمون إلى  
الحصن ، وصعدوا في تلك السَّلام ، وهبط خالدٌ

وأصحابه من السُّور إلى البوابين فقتلوههم ، وقطع  
خالدٌ وأصحابه أغاليقَ البابِ بالسُّيوف ، وفتحوا  
البابَ عَنوةً ، فدخل المسلمون من البابِ الشرقيِّ  
كالموج ، وراحوا يقتلون من وجدوه ، فإذا  
بالمسلمين الذين دخلوا من الأبوابِ الأخرى يقولون  
لهم :

- إنا قد آمَنَّاهم .

فقال خالد :

- إني فتحتها عَنوةً .

فأرسل إليه أبو عبيدة أن يكفَّ عن القتال ، فقد  
صالح الناسَ وأمنَّهم ، ولما كان أبو عبيدة هو  
الأمير ، فقد سمع خالدٌ لأمره ، وأجرى الصُّلحَ على  
الجانبِ الذي فتحه .

وفُرِضَت الجزيةُ على أهلِ دِمَشقَ يدفعونها  
للمسلمين ، على أن تُتركَ لهم حُرِّيَّةُ العبادة ، وعلى

أن يتولّى المسلمون حماية مدينتهم وأموالهم . واستقرّ  
المسلمون بعاصمة الشام ، وجلت عنها حامية  
هِرَقْل ، وراح المسلمون يتبعون الرُّوم ، فلم يجد  
هِرَقْلُ بداً من أن يفرّ إلى القُسْطَنْطِينِيَّة ، وأن يترك  
الشَّامَ للعرب .